

## قصة التحدي والمواجهة على الحواجز

مجلة التراث والمجتمع العدد 49 - زياد حميدان - 2009/01/15 - م - 09:10 ص



### مقدمة

شهد الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بعمقه العربي على مدار سنواته، مجابهة مفتوحة لجأ العدو الصهيوني فيها إلى كافة السبل من أجل طمس ونفي وجود الشعب الفلسطيني، ومن أجل الاستيلاء على أرضه أو ما بقي منها، فكان أن قام الشعب الفلسطيني بخلق سبل المواجهة الخاصة به بكل ما أوتى من قوة، فكلما استحدث العدو الإسرائيلي تكتيكاً أو استراتيجية ما رد عليها الفلسطينيون بأخرى مضادة، وهو الأمر الذي مكّن الشعب الفلسطيني من مواصلة مقاومته المشروعة لنيل حقه في الحياة والبقاء رغم فظاعة العدوان الذي يواجهه.

مع اندلاع انتفاضة الأقصى عام 2000 وتصاعد المقاومة الفلسطينية أمام عنجوية الاحتلال الإسرائيلي وفشل ما سمي بعملية السلام في الوصول لحل عادل للقضية الفلسطينية، دخل الفلسطينيون مرحلة جديدة بدأت سلطات الاحتلال الإسرائيلي فيها بممارسة العديد من السياسات لكسر الإرادة الفلسطينية وتحطيمها، فمن عمليات الإبادة والقتل التي وصلت لدرجة مجازر وجرائم حرب إلى سياسة العقاب الجماعي والتي تمثلت بهدم البيوت ومنع التجول وسياسة الحواجز العسكرية التي قطعت أوصال الأراضي الفلسطينية، بدأ الشعب الفلسطيني في خوض إحدى التجارب المؤلمة والتي واجهها بدوره بطرق مختلفة.

لقد كان الهدف من إقامة الحواجز العسكرية الإسرائيلية تحطيم إرادة الشعب الفلسطيني أفراد ومجتمعاً، فكانت سنوات 2000 إلى 2008 زاخرة بالتجارب والمعاناة على تلك ....

## قصص التحدي والمواجهة على الحواجز\*

زياد حميدان\*\*

### 1. مقدمة

شهد الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بعمقه العربي على مدار سنواته، مجابهة مفتوحة لجأ العدو الصهيوني فيها إلى كافة السبل من أجل طمس ونفي وجود الشعب الفلسطيني، ومن أجل الاستيلاء على أرضه أو ما بقي منها، فكان أن قام الشعب الفلسطيني بخلق سبل المواجهة الخاصة به بكل ما أوتى من قوة، فكلما استحدث العدو الإسرائيلي تكتيكاً أو استراتيجية ما رد عليها الفلسطينيون بأخرى مضادة، وهو الأمر الذي مكّن الشعب الفلسطيني من مواصلة مقاومته المشروعة لنيل حقه في الحياة والبقاء رغم فظاعة العدوان الذي يواجهه.

مع اندلاع انتفاضة الأقصى عام 2000 وتساعد المقاومة الفلسطينية أمام عنجهية الاحتلال الإسرائيلي وفشل ما سمي بعملية السلام في الوصول لحل عادل للقضية الفلسطينية، دخل الفلسطينيون مرحلة جديدة بدأت سلطات الاحتلال الإسرائيلي فيها بممارسة العديد من السياسات لكسر الإرادة الفلسطينية وتحطيمها، فمن عمليات الإبادة والقتل التي وصلت لدرجة مجازر وجرائم حرب إلى سياسة العقاب الجماعي والتي تمثلت بهدم البيوت ومنع التجول وسياسة الحواجز العسكرية التي قطعت أوصال الأراضي الفلسطينية، بدأ الشعب الفلسطيني في خوض إحدى التجارب المؤلمة والتي واجهها بدوره بطرق مختلفة.

لقد كان الهدف من إقامة الحواجز العسكرية الإسرائيلية تحطيم إرادة الشعب الفلسطيني أفراد ومجتمعاً، فكانت سنوات 2000 إلى 2008 زاخرة بالتجارب والمعاناة على تلك الحواجز، بحيث عرفت حواجز حوارة والحمرا والكونتير وعصيون كأكثر الحواجز السيئة الصيت والتي عانى

\* أجريت هذه الدراسة كأحد المتطلبات لمساق 736 في برنامج الدراسات العليا في دائرة علم الاجتماع، بإشراف مدرس المساق د. شريف كناينة.

\*\* طالب في برنامج الماجستير في علم الاجتماع في جامعة بيرزيت.

منها الفلسطينيون بسبب الحاجة للمرور والتنقل من وإلى أعمالهم وقضاء شؤون حياتهم، حيث كانت عملية المرور على أحد تلك الحواجز من قبل الفلسطينيين قصة بعينها، تحفل بالتكيل والإهانة والإذلال والاعتداء الوحشي وانتهاك كافة حقوق الإنسان، وعلى رغم فداحة ما جرى ويجري فقد كان الفلسطينيون كعادتهم قادرين على المواجهة واستتباب أدوات المجابهة المضادة التي حالت دون تمكين العدو من تحطيمهم وكسر إرادتهم، حيث تراوحت تلك الأساليب من الإيجابية إلى السلبية، فكانت الإيجابية هي المبنية على المجابهة والتحدي والندية سواء كانت عنيفة جسدياً أو لفظياً مقابل عنف الجنود، في حين تنوعت السلبية من تضليل وخداع ومراوغة ومسايرة وتكيف وإيجاد بدائل وصولاً للاستسلام لتكيل الجنود والقبول به على قاعدة كونهم عدواً لا يتوقع منه إلا ذلك.

وعليه فإن هذه الدراسة ستحاول القيام بتحليل بعض تلك القصص التي جمعت عن الحواجز، محاولين البحث عن الفلسطيني الذي يقوم بالمواجهة والتحدي، أي "البطل" الفلسطيني على الحاجز. إننا سنبحث وسط كل قصص التكيل والإذلال الهادفة إلى دفع الفلسطينيين إلى الاستسلام والخضوع، عن قصص أخرى تفيد أن الفلسطينيين استطاعوا مجابهة تلك الحواجز بصورة ندية أمام خصمهم الأقوى، فمن 220 قصة تم جمعها وجد ما يقارب 43 قصة، ذات محتوى لا يشير إلى الاستسلام لتكيل الجنود وإهاناتهم، ولا تشير إلى سبل مواجهة مبنية على التحايل والمسايرة والمهادنة، التي تعد في نظر هذه الدراسة طرق مواجهة سلبية، بل إن تلك القصص تشير إلى الأساليب التي سنسميها إيجابية، والتي تراوحت ما بين المجابهة الجسدية واللفظية، وذلك للمرور عن الحاجز أو الرد على الجنود والتعامل معهم بندية عند إعتداء الجنود أو محاولتهم ذلك.

تقسم هذه الدراسة إلى جزأين، يطرح الجزء الأول مقاربة نظرية حول الحواجز العسكرية الإسرائيلية والغاية منها والأساليب المستخدمة فيها ضد الفلسطينيين، وبالمقابل سنرى أساليب المجابهة الفلسطينية المضادة،

وصولاً إلى مقارنة منهجية، وذلك لشرح المنهجية التي ستعالج فيها هذه الدراسة النصوص الموجودة وكيفية تحليلها. أما الجزء الثاني فسيكون في تحليل النصوص، من خلال تحديد أنماط الفلسطينيين الذين يقومون بالمواجهة القائمة على التحدي والندية، ولماذا يقومون بها.

وقبل أن أبدأ الدراسة سأختار نموذجاً من القصص أعتقد أنه كافٍ لإطلاع القارئ من جهة ولتحليل القصص من جهة أخرى. ولكني سأستعمل كل النصوص التي جمعتها في هذا البحث وليس القصص المدونة أدناه فقط. وسأقدم القصص هنا بنفس النصوص التي قدمها الرواة.

## 2. عينة من القصص

### قصة رقم 5

الجنس : ذكر

العمر : 40-45

المهنة: عامل

مكان السكن : قرية

من إحدى القصص على أحد حواجز الجيش الإسرائيلي في مدينة الخليل عمال خارجون للعمل إلى مدينة القدس حيث قام أحد الجنود بالطلب من السيارة بالتوقف وقام الجندي بتفتيش هويات العمال داخل السيارة وأخذ التفتيش فترة طويلة مما أدى إلى ازدحام الشارع بالسيارات التي تقل العمال. طلب الجندي من أحد العمال النزول من السيارة بعد الاطلاع على هويته وقاموا باستجوابه على الحاجز وحدثت بينهم مشادة كلامية إذ قام الجندي بضربه ورد عليه العامل بنفس الفعل مما أدى إلى استفزاز الجنود على الحاجز وعمت الفوضى المكان وقام أحد الجنود من أعلى البرج بإطلاق النار على جمع السيارات دون استثناء مما أدى إلى إصابة العديد من الأشخاص وهروب البعض الآخر إلى أسفل الجبل وقام الجنود بملاحقتهم وإطلاق النار عليهم دون أي سبب.

كثير من العمال عادوا إلى بيوتهم مشياً على الأقدام من طريق الجبال

الوعرة وأحد العمال سقط ميتا بين الصخور من كثرة الركض وشدة  
الخوف.

وقد استغرقت هذه العملية من الساعة الرابعة عصرا إلى الساعة التاسعة  
بعد العشاء في جو ماطر وبارد جدا.

(رواها لي عامل في إسرائيل التقيته في الخليل عن طريق صاحبي)

### قصة رقم 6

العمر: 25-30

المهنة: تاجر

مكان السكن: مدينة

الجنس: ذكر

وأنا على حاجز بيت ايبا وقفنا الجندي على الحاجز وبلش يسأل في الشباب  
عن الهويات ومكان السكن وسألني واعطينو هويتي وحكالي عمرك  
انسجنت حكيتلو لا، حكالي طيب أضحك، قتلو ما بدني، وبالفعل هناك اليوم  
كنت زعلان وشكل الجندي ما عجيني وهو أصر أخو الش... إلا أضحك  
وأنا أصريت ما أضحك، حكالي إنزل من السيارة ولما نزلت وقفني بعيد  
عن السيارة، وحكالي أضحك وحكيتلو ما بدني، قللي عشان اتروح اضحك،  
حكيتلو طيب واضحكت ولما ضحكت ضربني كف إما شو كف دورني وأنا  
عجند بطلت أشوف حكيتلو تفو تقيت عليك (بصقت) في وجهو وبعديها أجو  
علي كل الجنود وكلهم بلشو في ضرب وكفوف وحطوني في غرفة  
صغيرة، ولما أجت الدورية عصبو عني وربطو ايدي وأخذوني على السجن  
وحكموني سنة و3 أشهر.

(في سيارات الخليل وما يعرفوا بس حكالي عن كيف انسجن حكيتو احكيلي  
القصة)

### قصة رقم 9

العمر: أواخر الثلاثينات

الجنس: ذكر

المهنة: مهندس

كنا على مخصص الحمراء والنا أكثر من ساعتين واقفين ومش امشيين حدا كان معنا في السيارة ولد عمرو من 2-3 سنين وهاض الولد مع أبوه وكانت شوب مش طبيعي انزلنا من السيارات من الشوب ما شفنا إلا الولد الصغير رمى حجر عالجنود اطلعو الجنود بغضب وحكينا لأبوه منيح اللي ما أخذوك. (مكان الجمع مؤسسة حكومية)

### قصة رقم 15

العمر: 40 سنة

المهنة: معلم

منطقة السكن: قرية/الخليل

صارت معي قصص كثيرة طول الفترة اللي عدت على مدار الأربعين سنة، وانحكى لي قصص كثيرة قريبة من الخيال. هذه القصة حدثت معي في انتفاضة الأقصى على الحاجز الإسرائيلي على مدخل الخليل الشمالي (حاجز عصيون). وفي إحدى المرات بينما كنت لمراجعة طبية لبنتي ساره عمرها 10 سنوات في مستشفى ببيت لحم، حيث الحواجز تنتشر مجزأة تلك المناطق إلى كتونات معزولة عن بعضها البعض، خصوصا سنة 2002 و2003، وكانت درجة الحرارة قريبة من الصفر. تم إيقاف السيارة التي نركبها وعدد من المواطنين وطلبوا من الجميع الانتظار دون اعطاء أي سبب حيث كان الجنود يجلسون ويضحكون دون إعطاء أي اعتبار للسيارة التي أوقفوها واستمر الأمر أكثر من ساعة ونصف حيث إزدحمت الطريق بالسيارات ولكن الجنود لم يهتموا للأمر، وبعد ذلك قام أحد الجنود بطلب هوياتنا، وتم أخذها ليفحصها ليرى

إن كان هناك أحد المواطنين له صلة قرابة أو أي علاقة بأي من الفصائل أو حتى أي علاقة له بأي شهيد أو مسجون أو جريح. وبعد ذلك طلب من الركاب النزول من السيارة وقاموا بتفتيشهم حيث كان هناك بعض النسوة فرفضن أن يقوموا بتفتيشهن أما الرجال فطلبوا منهم إن يرفعوا ملابسهم عن جسدكم وكان ذلك إهانة لهم، إن السيارة يوجد بها رجال ونساء وأرادوا فقط أن يستهزئوا، بالإضافة إلى ذلك قاموا بتفتيش الأعراس الشخصية التي كانت في السيارة وبدأوا باخراج كل ما فيها أمام الجميع واخذوا يستهزئوا بنا ويضحكون، وكلما رفض احد المواطنين ذلك أو حاول منعهم قاموا بضربه، ولكن الأمر الذي أثار المواطنين واستفزهم أن الجنود طلبوا من أحد الشباب أن يقبل وجه صبية شكلها كانت بطريقها للجامعة، ولكن الشباب رفض ذلك، وأصر الجنود على تنفيذ أمرهم ولكن رفض الشاب قوبل بالضرب والاهانة، وأخيراً انتهى الأمر بعدم القيام بذلك بتاتا حتى ولو تم قتله، وكانت أصوات الجنود تلعو وصراخه كذلك، وبعد أن ضربه الجنود لدرجة التكسير، اقتربت الشابة منه وطلبت أن يقبلها رافة بحاله، ولكنه بقي مصراً على موقفه، وبعد ذلك سمح لنا بالمرور بعد معاناة وضرب واهانة لم يسبق أن تعرضت لها من قبل، وخصوصاً أن ابنتي كانت معي وشعرت أنني عاجز عن حمايتها في مواقف مشابهة لو تعرضت لها لا سمح الله.

### قصة رقم 17

الجنس: ذكر.

العمر: 36 سنة.

مكان السكن: خربثا المصباح/ رام الله.

المهنة: تاجر.

مكان عقد المقابلة: في محل المبحوث.

لما وصلنا حاجز عين عريك كان في جندي روسي، ما كان مخلي حد من شره، كان على طول بنقي الشباب عشان يذلمهم، كان في شب قدامي واقف

بستى الدور وحامل هويته عشان التفتيش، كان شب طويل ضخم، مربى لحيه، وكان لابس رسمي، عرفت بعدين إني أستاذ من قرية راس كركر، لما وصل عند الجندي ضربه كف وأخذ هويته، صبر الشب شوي وقال للجندي ليش عملت هيك، بعدها الجندي سب عليه بالعبري أنا فهمت عليه، سب شرفه، قله الشب عيب عليك، أنا قادر أرد عليك، بس انت متخبي ورا سلاحك، إذا أنت (كيفر) يعني زلمه ارمي سلاحك وقابلني بدون سلاح، أخذ الجندي لوسط الشارع وقف حركة السير وطخه في رجله وقله أنا زلمه على أمك، قام الشب وضرب الجندي كف وقعه الأرض، كانت الناس والجنود يتفرجوا، وتعارك الشب والجندي بايديهم الشب بطح الجندي على الأرض وخبط عليه وهو مطخوخ في رجله، قديش الله يرحمه كان قوي، أجا جندي ثاني ودفع الشب على الأرض، وقام الجندي الروسي وبلش طخ في الشب فرغ ما يقرب مخزن كامل في جميع جسمه، وبلشت الشباب رمي حجاره عشان يوخذوه من عندهم ما رضيو حتى مات.

### قصة رقم 18

الجنس : ذكر

المهنة : موظف في السلطة

مكان السكن : مدينة

العمر : 38

في يوم من أيام رمضان كان لنا دعوة إفطار وفي طريقي إلى منزل أخي وقابلنا حاجز وهو يسمى بالطيار لأنه ليس حاجز دائم انزلني من السيارة وانزل أولادي وطلب من أمي المرأة كبيرة السن النزول فقلت للجندي اتركها لا تستطيع الوقوف كثيرا ألا يكفيك وقوفي أنا والأولاد فقال لي اخرس وذهب لينزل والدتي لم أستطع تحمل إهانة والدتي ألا يكفي إهانتي فذهبت نحوه وابعدته عنها ولم أرى سوى باقي الجنود أسرعوا بإمساكي وقد طرحوني أرضا وأنزلوا والدتي من السيارة وقد شدوا يدها بسرعة فما كان

مني إلا أن أبعد الجندي من يدي وأركض نحو من أمسك بوالدتي .. فهجم باقي الجنود وأمسكوا بي من ظهري والآخرين شدو يدي إلى الخلف حتى صرخت وبعدها ألقوا بي على الأرض وكننت أنظر إلى أمي وزوجتي وهم سيكون تمنيت لو أبقى مطروحا على الأرض ولا أرى أحدا من حولي ... إلا أن بعض الأشخاص أتوا لحملي وذهبوا بي إلى المشفى فقد تسببوا بخلع يدي وحتى الآن اتعالج لأن الخلع كان قويا وقد قام الأطباء بإرجاعها بطريقة خاطئة وفي كل مرة أتألم منها أتمنى لو أن هذا اليوم يزال من ذاكرتي...

### قصة رقم 21

الجنس: ذكر

العمر: 34

المهنة: موظف حكومي

مكان السكن: قرية

"في 2007 كنت متوجها أنا واخواني في سيارتي الخاصة إلى مدينة رام الله وعند وصولنا حاجز عطاره كان هناك العديد من السيارات انتظرت حتى جاء دورنا وعند وصولنا للجنود على الحاجز طلب مني الرجوع مره أخرى إلى آخر السيارات سألته عن السبب قال بأنني تجاوزت السيارات علما أنني أكره كل سائق يتجاوز السيارات الأخرى وهذا ليس من طبعي ودون وعي قمت بشتم الجندي ورجعت إلى آخر السيارات وانتظرت مره أخرى حتى جاء دورنا وعندما وصلت الجنود قام أحد الجنود وفتح قنبله صوتيه وألقاها من شبك سيارتي عندها القنبله انفجرت بداخل السيارة وأحسست أن السيارة بكاملها انفجرت كما أن ساق أخي قد احترقت بسبب القنبله. ومنذ ذلك الوقت كلما وقفت على حاجز إسرائيلي ويأتي الجندي لأخذ هويتي الشخصيه أكون حذرا خوفا من أن يقوم أحد الجنود بإلقاء قنبله صوتيه مرة أخرى.

### 3. مقارنة نظرية

استخدم العدو الصهيوني منذ بداية الصراع مع الشعب الفلسطيني، العديد من الأساليب من أجل تحطيم الشعب الفلسطيني، ليصل إلى محوه ونفيه ليس عن أرضه فقط بل وعن الوجود، حيث تمثلت تلك الأساليب في تكتيكات واستراتيجيات عدة، وذلك في سياق المواجهة المفتوحة والتي ازدادت زخماً مع اندلاع انتفاضة الأقصى عام 2000، فكانت "إسرائيل" تستخدم أساليب مباشرة وأخرى غير مباشرة، فأما المباشرة فهي ما يمكن تسميته "التنظيف العرقي المباشر" والمتمثل في الإبادة والتصفية الجسدية والتي اتسع استخدامها خلال السنوات الثمان الماضية من خلال سياسة القتل المتعمد والاعتقالات والاعتقال، بل وإعلان الحرب على الفلسطينيين أينما وجدوا كمقاومين للاحتلال كما حدث في لبنان عام 1982 على سبيل المثال، وثانياً تهجير الفلسطينيين وذلك من خلال مواصلة استخدام أساليب الضغط الاقتصادي والنفسي والإعلامي، لدفع الفلسطينيين إلى ترك بلادهم بحثاً عن مكان أفضل للحياة، أما التنظيف غير المباشر فهو العمل على الإنهاك التدريجي للمجتمع الفلسطيني وصولاً لتحطيمه، حيث يكون هذا الإنهاك على مستوى الأفراد أو الجماعة (علقم وكناعة 2003: 42-45)، بحيث يهدف الإسرائيليون إلى دفع الفلسطينيين للخروج من أرضهم والهجرة منها من خلال الإنهاك المتواصل والطويل الأمد، أو إعلان الفلسطينيين الاستسلام والخضوع التام للإملاءات الإسرائيلية بقبول الاحتلال كما هو والتنازل عن كافة الحقوق الوطنية الفلسطينية.

ولذلك فقد قام الشعب الفلسطيني بدوره باستحداث أساليبه الخاصة لمواجهة المضادة، والتي تتماشى مع إمكانياته وعدم توازن المعادلة مع عدوه المسلح بكافة أشكال القوة والسيطرة، وبرغم كون الأساليب الفلسطينية محدودة وبسيطة مقارنة بأدوات المحتل الإسرائيلي، إلا أنها قد أثبتت نجاعتها خلال المواجهة، والدليل على ذلك أنه بعد كل تلك السنوات من الصراع من أجل البقاء ضد ذلك العدو الشرس، لم يهزم الشعب الفلسطيني

أو يقبل بالاستسلام، حيث مارس الفلسطينيون وما يزالون كافة أشكال المقاومة والممانعة العنيف منها والسلمي، متسلحين بقوة حقهم وإرادتهم، ومن خلال توريث الذاكرة الجماعية الفلسطينية لأجيالهم، كي يواصلوا النضال ضد عدوهم الغاشم.

فمع اندلاع انتفاضة الأقصى عام 2000، بدأت "الحكومة الإسرائيلية" بممارسة جملة من الأساليب لقمع الفلسطينيين وتحطيمهم كما أسلفنا، والتي اتسمت بكونها سياسات عقاب جماعي، مثل منع التجول، وهدم المنازل بحجج أمنية أو لعقاب عائلة خرج منها فدائي أو معتقل، ومنها أيضاً سياسة الحواجز العسكرية، والتي توسع باستخدامها بطريقة غير مسبوق، فبعد عام واحد من اندلاع الانتفاضة بلغ عدد تلك الحواجز 190 حاجزاً (علقم وكناعنة 2003: 64) لتصل فيما بعد لمئات الحواجز التي قطعت أوصال الأراضي الفلسطينية المحتلة، فاصلة المدن عن بعضها، وقاطعة الطرق ما بين كل مدينة فلسطينية وقرائها، وذلك بحجة الدوافع الأمنية المرتبطة بالأمن الإسرائيلي ومنع تنفيذ عمليات عسكرية من قبل الفلسطينيين ضد أهداف إسرائيلية، وبدل أن تقوم الحواجز بمهمتها المعلنة بحماية الأمن الإسرائيلي أو تنجح في مهمتها غير المعلنة بكسر الشعب الفلسطيني، تحولت لميدان مواجهة بين الفلسطيني والمحتل ومرجلاً يصقل فيه الحقد وكرهية الاحتلال والمحتل الأمر الذي يولد إرادة المقاومة كلما خبت، حيث تصف ريما حمامي في مقالة بعنوان "حكاية حاجز تفتيش في زمن الاحتلال" حالة الفلسطينيين في انتفاضة الأقصى فتقول:

لقد ترك السواد الأعظم من المجتمع مفتقراً إلى الأطر التنظيمية ولم يمنح أي أدوار عملية في مقاومة الاحتلال، وكما لاحظ عدد من النقاد في وقت مبكر فإن عسكرة الانتفاضة حكمت على معظم المجتمع بدور الجمهور المنفرج، في الوقت نفسه ازداد نطاق ودرجة العقوبات الجماعية سعة ووحشية، فقد رمى الأفراد ومجتمعاتهم في كفاح عبثي لتحصيل الحد الأدنى الأساسي من مقومات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، غير أن

العقوبات الجماعية تخلق في الوقت نفسه تجربة جماعية ونشاطاً ومعنى، فقد تحولت حواجز التفتيش بسخرية القدر إلى جمهور الانتفاضة، فهي المواقع والمواضع التي يواجه فيها معظم السكان الاحتلال مواجهة مباشرة كفرد من المجتمع، ولذلك فعند حواجز التفتيش وحيالها طور المجتمع معاني جديدة للمقاومة وصوراً مرتجلة من التنظيم مكتسباً بذلك صوتاً استراتيجياً لدوره في الانتفاضة (حمامي، 2005: 103)

وعن معنى كلمة حاجز، يقول كناعنة وعلقم في كتابهما "الحواجز العسكرية الإسرائيلية، 2003" "إن الحاجز لغة هو المانع وحجز الشيء أو الشخص منعه من الوصول إلى غايته" (علقم وكناعنة 2003: 64)، ولذلك فقد كانت الحواجز العسكرية الإسرائيلية تقوم بمنع الفلسطينيين من الوصول إلى مقصدهم وذلك بعيداً عن الجانب الأمني بقدر كون ذلك نمطاً من أنماط العقاب الجماعي، وكأداة للضغط على المجتمع الفلسطيني لوقف مقاومته وكسره في النهاية للقبول بواقع الاحتلال الإسرائيلي، الأمر الذي أرجع أيديولوجيا الصمود الوطنية إلى البروز في الحياة اليومية مكتسبة معنى جديداً، فبينما كان معناها في السبعينات يشدد على التمسك بالأرض ورفض الرحيل على الرغم من شدائد الاحتلال، بات لها اليوم دلالة أكثر فعالية، فهي في شكلها الجديد تعني المضي في الحياة اليومية والحركة، وهي اللازمة الشائعة: الحياة لازم تستمر (حمامي، 2005: 104).

هذا ولا تقتصر الحواجز العسكرية على إعاقة الحركة فقط، بل عملت على توليد فوضى عارمة، فالأثر الظاهر هو الصعوبة التي يواجهها الناس والبضائع والخدمات في بلوغ أهدافها، والأقل ظهوراً هو كيف تحطم الحواجز ألوف الدارات التي تمر من خلالها الألوف من العلاقات الاجتماعية الاقتصادية لتجعل الحياة ممكنة، فالأمر ليس مجرد عدم وصول بضائع إلى السوق أو عدم وصول طالب إلى المدرسة، بل إن شبكة العلاقات التي تجعل التعليم قابلاً لتحقيق أو التجارة ممكنة تتمزق بكاملها فجأة، مع إرسال كل خط مكسور انعكاسات متعددة، فالبقاء يعني إعادة بناء

تلك الدارات، حيث يقوم الأفراد بتلك العملية من إعادة البناء بصورة عشوائية بحيث تتطور أنظمة غير رسمية في الظهور، مثال ذلك البروليتاريا الرثة لسواق الفوردات بثقافتهم البلطجية، فكونهم زعران هو أمر ضروري للتعامل مع كم الفوضى الذي تنتجه الحواجز وكذلك عند التعامل مع زعرنة جنود الحواجز (حمامي 2005: 104).

لقد انتشرت الحواجز العسكرية الإسرائيلية في كل أجزاء الأراضي الفلسطينية المحتلة، حول القدس، وحول كل مدينة وقرية، على تقاطعات الطرق ومداخلها، ناهيك عن المعابر التي تربط الأراضي الفلسطينية بـ"إسرائيل" والدول المجاورة، حيث تكون تلك الحواجز ثابتة وبعد أن تقام بفترة وجيزة يحولها الجيش الإسرائيلي لتكون أشبه بمعبر دولي، في حين النوع الآخر من الحواجز وهو الحواجز الطائرة والتي تقدم بها الدوريات العسكرية الإسرائيلية لفترات وجيزة حيثما طاب لها ذلك.

بعد سنوات الانتفاضة الأولى أصبح من الجلي أن تلك الحواجز لم تقم بدوافع أمنية كما يدعي الإسرائيليون، وإنما كان الهدف من تلك الحواجز التحطيم الجماعي للفلسطينيين، وذلك على المستوى الجسماني والمستوى المعنوي، بحيث كانت تلك سياسة ممنهجة وليست أفعالاً فردية هنا وهناك، ذلك أن الحواجز الموجودة تعمل على استنزاف الطاقة الجسمانية للفلسطينيين، الذين من أجل التنقل والحركة من وإلى أعمالهم وأغراض حياتهم اليومية، أضحووا يضطرون إلى النهوض مبكراً من النوم والعودة المتأخرة لبيوتهم، كما ينهكون من طول الطريق والسير على الأقدام على الحواجز أو للانتفاف عليها، يخضعون للانتظار الطويل على الحواجز الذي قد يمتد لساعات من أجل عمليات التفتيش والتدقيق في الهويات والتي يكون أغلبها شكلياً من قبل الجنود، وذلك من أجل خدمة هدف الاستنزاف ليس إلا، كما يعاني الفلسطينيون على تلك الحواجز من الإنهاك بسبب الطقس سواء البارد أو الحار مع سوء تجهيز تلك الحواجز (فهي بلا مظلات أو دورات مياه)، كما يعانون من الإنهاك بسبب المطاردة لهم من قبل الجنود

حينما يحاولون اتخاذ طرق بديلة أو يمنعهم الجنود من المرور على الحاجز (علقم وكناعنة، 2003: 225-234).

أما عن الإنهاك المعنوي فهو يتمظهر من خلال عدة استراتيجيات منها: سياسة التمييز العنصري على الحواجز ما بين الفلسطينيين واليهود لتأكيد دونية الفلسطينيين أمام اليهود الذين لا ينتظرون على تلك الحواجز، إستراتيجية الإقلاق المستمر من خلال استخدام الحواجز المفاجئة أو الطيارة، التعويق على الحواجز، الاحتجاز، إغلاق الطرق أو الحاجز بصورة مفاجئة أمام المارة الذين ينتظرون لساعات بلا مبرر، التفتيش العاري أو شبه العاري للفلسطينيين من قبل الجنود وما يصاحبه من إذلال وإهانة وحط بالكرامة، إستراتيجية التخويف والإرهاب الذي يمارسه الجنود من خلال الصراخ والتعامل بعدوانية وإطلاق النار والغاز المسيل للدموع والتهديد بإطلاق النار والقتل، إستراتيجية الإهانة والإذلال من خلال السخرية من الفلسطينيين وسؤالهم أسئلة سخيفة، إضافة إلى الأوامر الشاذة التي يتوجب على الفلسطيني تنفيذها ليتسلى الجنود الذين يهدفون للحط من إنسانيته، تشبيه الفلسطيني بالحيوان وتأكيد أن الحيوان أفضل منه، تخريب ممتلكات الفلسطينيين، إهانة قيم مرتبطة بالأنوثة أو الرجولة، إهانة القيم الدينية وإهانة القيم العربية والإسلامية (علقم وكناعنة، 2003: 235-268).

أما عن سياسة تحطيم الأفراد فيهدف الاحتلال الإسرائيلي إلى تحطيم الجماعات أو الأشخاص الذين يرى أنهم من يقاوم الاحتلال أكثر من غيره، أو من هم مؤهلون أكثر من غيرهم لذلك، فيستهدف تحطيم الأطفال والشباب أكثر من غيرهم، ليحقق في النهاية تحطيم المجتمع الفلسطيني ككل، حيث لعبت الحواجز دوراً مهماً في هذه الاستراتيجية أيضاً، من خلال تنكيل جنود الحواجز المستمر بالفلسطينيين، حيث تعددت أوجه التنكيل ومنها: "التعذيب" سواء بالشبح "الصلب"، الضرب، الاعتقال، اختطاف السيارات والاستيلاء على الممتلكات، التهديد والشروع بالقتل، ثم القتل

العمد على الحواجز لأي سبب كان بحجج أمنية أو دفاع الجنود عن النفس، حيث يطلقون النار بهدف القتل دون أن يتطلب الموقف ذلك، إعاقة المرضى عن المرور والتسبب بموت الكثير منهم، منع مرور الحوامل اللاتي ولدن على الحواجز ليموت عدد كبير من الأطفال المولودين على الحاجز (المصدر السابق: 273-316)، مع أن الحواجز كانت الميدان العام الذي يمارس الاحتلال الإسرائيلي استراتيجياته وتكتيكاته السالفة الذكر ضد الفلسطينيين، إلا أن الفلسطينيين بدورهم لم يستسلموا لذلك بل قاموا بتشكيل أساليب مضادة لمواجهة تلك الإستراتيجيات الإسرائيلية الفاعلة على الحواجز، حيث يعدد علقم وكناعنة تلك الأساليب كالتالي:

أ- **التطمين والحد من التوتر:** والذي يتمظهر من خلال قيم الإيمان بالله والدعاء له، وأيضاً إطلاق المسبات على الجنود دون مواجهتهم بتلك المسبات وذلك للتنفيس عن الغضب والاحتقان، وهذا مماثل للسخرية وإطلاق النكت، أو استخدام الهواتف النقالة لطمأنة العائلة.

ب- **البدائل:** وهو إيجاد بديل للطرق المغلقة بالحواجز من خلال البحث عن طرق ترابية ووعرة، تلقي العلاج في المكان دون نقل المرضى والحاجة للمرور على الحاجز، إيجاد بدائل في قطاع التعليم....الخ.

ت- **التكاتف:** حيث يساعد الفلسطينيون بعضهم على الحواجز، كحمل المرضى والأطفال وكبار السن من قبل فلسطينيين يمرون على الحاجز وليس بينهم صلة قرابة، مساعدة من تقطعت بهم السبل بسبب الحواجز واستضافتهم للمبيت في بيوت قريبة.

ث- **المراوغة والسايرة:** وذلك بالكذب على الجنود وتضليلهم بإدعاء المرض أو حمل وثائق سفر أجنبية، أو مسايرة الجنود وخاصة من قبل من يتقن اللغة العبرية.

ج- **الإصرار والتحدي:** والذي يظهر لدى الفلسطينيين من خلال الإصرار على الوصول إلى مقصدهم رغم وجود الحواجز، الاحتجاج على ممارسات الجنود على الحواجز وعمد الاستكانة لما يفعلون، عدم الامتثال لأوامر الجنود (علقم وكناعنة، 2003: 317-354).

وخلاصة القول إن الفلسطينيين قد استحدثوا استراتيجياتهم الخاصة لمواجهة استراتيجيات الاحتلال الإسرائيلي المستخدمة على الحواجز أو التي أنشأت الحواجز من أجلها، وبذلك لا يمكن القول إن الحواجز بما يمارس عليها من تكيل وإرهاب وإذلال وإهانة قد جعلت الفلسطينيين يستسلمون ويخضعون، أو إن الفلسطينيين يمارسون أسلوباً واحداً في التعامل مع الحواجز، يتمثل في الخضوع والقبول بالإهانة والإذلال، القيام بمسايرة الجنود وتضليلهم، أو ممارسة حيل دفاعية لإرضاء الذات بعد الإهانة تفادياً للشعور بالنقص والعار، والدليل وجود أساليب أخرى يتعامل بها الفلسطينيون على الحواجز والتي تمارس إلى الآن، ومنها المجابهة.

يحدد مصطفى حجازي في كتاب "التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور" أشكال مجابهة الإنسان المقهور للتسلط والقهر حيث يبدأ من مرحلة القهر والخضوع والتي تنفرع إلى عقدة النقص التي يصاب بها الإنسان المقهور كونه يشعر بدونية عالية، وهو الأمر الذي يقود لعقدة العار، حيث يخجل من نفسه، وهو ما يقود إلى اضطراب الديمومة، والتي يرى فيها الإنسان المقهور أفقه مسوداً فينكص إلى الماضي مبتعداً عن مستقبله الأسود، ثم يصل حجازي إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة الاضطهاد والتي يحمل الإنسان المقهور الآخرين الذنب فيما حصل له ويلقي عليهم بعدوانية يحاول من خلالها تعويض شئ من احترامه لذاته، حيث أخيراً يصل إلى مرحلة التمرد والمجابهة، والتي تتصف أساساً بالعنف حيث يمد العنف في مجابهة التسلط بنوع من الإحساس بالقوة، التي تصبح رمز الحياة المهمة الأساسية، أو المرحلة الحاسمة في هذه المجابهة هي في التغلب على خوف الموت، إن تحدي الموت وقهره يحمل في النهاية معنى الانتصار على القهر والرضوخ اللذين يعنيان موتاً معنوياً ووجودياً، إن قهر الموت ينسف مشاعر الخوف المتصلة في نفسية الإنسان المقهور، كما أن العنف ينسف مشاعر التنكر للذات وللجماعة وصب الحقد عليها، إنه يوحد الشعب، محققاً لحمة قوية بين أفراد الشعب المقهور (حجازي، 2005: 55).

وبالفعل فإن مراجعة سريعة لعالم الحاجز تقود بالفعل إلى ملاحظة هذا التحليل الذي يقدمه حجازي، بحيث نرى تلك المراحل متسلسلة أو تحدث في آن واحد استناداً إلى الجماعة الموجودة على الحاجز والتباينات ما بين أفرادها، فنرى من يخضع شاعراً بالنقص والعار غير متفائل بالمستقبل، ونرى من يحاول ممارسة حيل دفاعية عله يشعر باحترام ذاته الذي مرغ الجنود به الأرض، كما نرى من يمارس الاضطهاد نحو الآخرين محملاً إياهم الذنب، فالكل على الحاجز يشتم العرب لأنهم مسئولون عما يحدث للفلسطينيين، أو نلاحظ أنه عند حدوث أي خلاف بسيط، فهو يمتد إلى شجار أو عراك كما يحدث مع سائقي التوكسيات الذين يتسابقون على اصطيد الركاب، ومع هذه الصورة نرى أيضاً نماذج المجابهة والمواجهة العنيفة ما بين جنود الحاجز والفلسطينيين.

يرى حجازي أن العنف في مجابهة المتسلط يمد الفرد بنوع من الإحساس بالقوة، التي تصبح رمز الحياة، حيث المهمة الأساسية أو المرحلة الحاسمة في هذه المجابهة هي في التغلب على خوف الموت، ذلك أن تحدي الموت وقهره يحمل في النهاية معنى الانتصار على القهر والرضوخ، كما ينسف مشاعر الخوف المتأصلة في نفسية الإنسان المقهور، مقيماً صلحاً ما بين الذات والجماعة، ومنشأً لحمة قوية بين أفراد الشعب المقهور، فتتغير دلالة الذات والجماعة من سلبية مطلقة إلى إيجابية مطلقة، ومن أشد درجات التبخيس الذي يعني النقص والمهانة، إلى أقصى درجات التقدير، ولذلك يقول حجازي:

ليس هناك من لغة ممكنة مع قوى التسلط سوى لغة  
مماثلة للغتها، لغة القسوة، لغة الغلبة، فمع ترسخ اليأس من  
الحوار السلمي أو الرضوخ، يترسخ الإحساس بضرورة  
العنف وإلا تحول الشعب إلى ضحية دائمة ونهائية، إننا هنا  
أمام ظاهرة يسميها علماء الأحياء برد الفعل الحرج والتي  
تتلخص في الخيار ما بين الفناء أو المجابهة، وهي موجودة

لدى الحيوان والإنسان على حد سواء، فقد يستسلم الكائن الحي ويرضخ أو يهرب طالما برزت لديه إمكانية للنجاة، ولكن عندما تتعدم هذه الإمكانية يتحول الضعف إلى قوة، معاً كل طاقاته ويكتفها في دفاع مستميت عن نفسه (حجازي، 2005: 55).

وعليه يمكن فهم الدافع الذي يرمي بالفلسطيني الأعزل لخوض مجابهة يعرف في قرارة نفسه أنها خاسرة، وأنه سيدفع حياته ثمناً لها بكل بساطة، غير أن ما يهمننا هو معرفة من الذي يخوض هذه المجابهة من الفلسطينيين دون غيره، ولماذا.

#### 4. مقارنة منهجية

سنحاول هنا تبيان أسلوب تحليل النصوص المتبع في هذه الدراسة، وذلك اعتماداً على أساليب تحليل النصوص الكيفية والتي أتينا على دراستها في مساق تحليل النصوص الكيفي، فانطلاقاً من كون عملية البحث بصورة مبدئية ما هي إلا محاولة الإجابة على سؤال (كما يقول د. كناعنة في الكلمة الافتتاحية لمجلة التراث والمجتمع - كناعنة 2008)، فسوف نطرح سؤالاً على حوالي مائتي نص أو قصة عن الحواجز، جمعها طلاب مساق تحليل النصوص الكيفي، والذي هو السؤال المركزي لهذه الدراسة: من هو الفلسطيني/ة الذي يقوم بمجابهة الجنود على الحواجز سواء كانت مجابهة جسدية أو لفظية؟ ومن خلال اكتشاف وحصر أنماط الفلسطينيين الذين يقومون بالمواجهة كميّاً، سنحاول تفسير ذلك كميّاً، من خلال مقارنة الأنماط بعضها ببعض، وذلك بالإجابة على عدة أسئلة ثانوية هي:

- أ- لماذا يقوم الفلسطيني/ة بالمواجهة الجسدية أو اللفظية؟
- ب- ما هي صفات الفلسطيني/ة الذي يقوم بتلك المواجهة؟
- ت- ما هي نتيجة المواجهة؟

ونفترض في هذه الدراسة:

- أ- إن الفلسطينيين الشباب من كلا الجنسين الذين عمرهم ما بين (18 إلى 30 سنة) هم من يقومون بالمجابهة، ذلك أن الشباب بالمجمل هم الفئة الأكثر تمرداً على القهر.
- ب- إن حملة الهوية المقدسية من الجنسين أكثر اندفاعاً للمجابهة من إخوانهم وأخواتهم حملة هويات الضفة الغربية.
- ت- كلما كان اعتداء الجنود يمس المرأة الفلسطينية، كلما حدثت مواجهة الذكور الفلسطينيين للجنود وكانت أعلى حدة.
- ث- تنتظر المرأة الفلسطينية مساعدة الرجل الفلسطيني على الحاجز وتقبل بها حتى لو ظهرت كوصاية ذكورية عليها.

هذا ونعني بالمجابهة كمفهوم عملية التصدي للجنود الإسرائيليين على الحواجز حين يعتدون على أحد الفلسطينيين، من حيث كون عملية التصدي تمتد من الاشتباك مع الجنود وضربهم، البصق عليهم، سبهم وجهاً لوجه، رفض الامتثال لأوامرهم، تحدي الجنود للمرور على الحاجز رغماً عنهم، وصولاً للتعامل مع الجنود بندية وإظهار الكبرياء والشموخ أمام الجنود، أما عن تحديدنا للفئة العمرية التي تقوم بالمواجهة ما بين 18-35 عاماً، فنحن نفترض أن الشباب هم أكثر فئة مستعدة للمجابهة، ففي الثقافة الفلسطينية فإن أبرز التوبيخات للذكور في المجتمع هي بشكل أو آخر كالاتي:

- أ- طفل- من سن 6 إلى 13 عاماً.
- ب- شاب- من 14 إلى 25 عاماً.
- ت- رجل- من 25 إلى 60 عاماً (كناعنة 1992: 62).

غير أننا رأينا أن فئة ما بين 14 إلى 35 هي قابلة لأن يطلق عليها أيضاً فئة الشباب، فمن خلال مراجعة القصص التي جمعت، لوحظ في كثير من القصص أن عُمر الشخص الذي يقوم بالمجابهة يكون أيضاً في أوائل الثلاثينيات، وقد كان يطلق عليه من قبل الناس أو الراوي للقصص "شاباً" وليس رجلاً، في الوقت الذي كانت كلمة رجل تطلق على من هم يبلغون 40 سنة فما فوق، ولذلك سنحدد فئة الشباب في هذه الدراسة ما بين 18 الى 35 وذلك كفئة تتوسط ما بين الطفولة والرجولة.

في حين كانت عينة الدراسة عينة قصدية مكونة من 220 قصة جمعت ككل من قبل طلاب مساق التحليل الكيفي للنصوص خلال شهري إبريل وأيار 2008، من خلال قيامهم بإجراء مقابلات كان المبحوث يسرد قصة عن الحواجز بمجرد سؤاله أن يروي قصة حدثت معه أو رآها أو سمع عنا على الحواجز، دون تدخل من الباحث (الطالب) الذي كان يكتبها كما يرويها المبحوث، فكانت مقابلات مفتوحة بسؤال واحد، وقد كانت تلك المقابلات جمعت من مختلف مناطق الضفة الغربية، حيث وجد أن هنالك ثلاثة وأربعين نصاً من أصل 220 قصة قد وجد فيها شكل المواجهة التي تعنى بها هذه الدراسة، والقائم على المجابهة الجسدية العنيفة أو اللفظية القائمة على التحدي والإصرار من قبل الفلسطينيين.

### تحليل النصوص

#### 1. 4. المجابهة

من خلال القصص المأخوذة من العينة الكلية والبالغة 220 قصة، وجد 43 قصة تطرح شكلاً من أشكال المجابهة الجسدية أو اللفظية والتي قام بها فلسطينيون ضد الجنود الإسرائيليين على الحواجز، حيث وجد منها 28 قصة مجابهة (جسدية عنيفة أو لفظية) قام بها الذكور الشباب من الفئة العمرية ما بين 25 إلى 35 عاماً، في حين وجد 6 قصص عن إناث قمن بالمجابهة مع الجنود ممن ينتمين إلى الفئة العمرية ما بين 18 إلى 25 عاماً، بحيث يتضح أن من يقوم بالمجابهة هم الشباب من الفئة ما بين 18 إلى 35 عاماً، دون وجود فرق بذلك بين الجنسين، كما لوحظ وجود نمط مجابهة مع الجنود قامت به النساء ممن تجاوزن عمر 40 سنة حيث وجد 3 قصص عن ذلك، أما الرجال فكان هناك قصتان، والأطفال قصتان، وقصة عن مواجهة جماعية بالحجارة ما بين الشبان وجنود الحاجز.

إن هذا يشير إلى صحة الافتراض بكون الشباب هم من يجابهون من كلا الجنسين، مع ملاحظة أنهم من الطلاب أو الموظفين ممن يمتلكون سنوات تعليم عالٍ، كما يشير إلى دور للمرأة (من عمر 36 فما فوق) في

المجابهة امام غياب الرجل فوق سن 35 عنها، غير أنه عند النظر لهذه القصص من منظور آخر نجد شيئاً مختلفاً، فمثلاً حين نرجع لمتغير بطاقة الهوية نجد نتائج مغايرة، فقد وجد 4 قصص لشبان ذكور من القدس قاموا بالمواجهة، و5 قصص لشابات مقدسيات قمن بالمواجهة، بحيث تبقى النتيجة كما هي على صعيد القدس، أما الشباب من حملة هويات الضفة فالنتيجة مغايرة، حيث وجد 24 قصة مواجهة قام بها ذكور مقابل قصة واحد قامت بها شابة تحمل هوية الضفة، والتي أجبرت على المواجهة حين حاول الجنود نزع ثيابها عنها، حيث يلحظ غياب الشابات من حملة هوية الضفة عن المجابهة، حتى لو تعرضن للتحرش الجنسي اللفظي، بل لا يتحركن إلا بحدوث التحرش الجسدي الغاية في الوقاحة، وربما قيم المجتمع المحافظة حول سمعة الفتاة وتصرفها حتى أمام المحتل، هي التي منعت الإناث من القيام بتلك المجابهة، بل إن هذه القصة اليتيمة يرويها شاب رأى الحدث.

#### 4.1.1. المجابهة الجسدية

أما عندما ناتي لمتغير نوع المجابهة، والتي سنقسمها إلى مجابهة جسدية (ضرب) وأخرى لفظية (شتائم، تحدي)، فإننا سنجد نتائج أخرى، حيث وجد ما مجموعه 18 قصة من أصل 43 قصة، قام فيها شبان وشابات فلسطينيون بضرب الجنود، حيث حدثت 13 قصة مجابهة جسدية عنيفة مع شبان ذكور، و3 قصص مع الإناث، إضافة لقصتين حدثتا مع أطفال، وقصة واحدة تتحدث عن مجابهة جماعية بالحجارة ما بين الشبان والجنود، وهو ما يشير إلى كون من يقوم بالمجابهة بصورة عامة هم الشبان الذكور الذين يبلغون من العمر من 18 إلى 35 عاماً، والذين هم من الطلاب أو ذوي التحصيل العلمي العالي من الموظفين، أما على صعيد وجود فوارق ما بين شبان القدس وشبان مناطق الضفة الأخرى، فلم يكن هنالك فرق ما بينهم، إلا أنه وجد فرق ما بين الإناث، ففي حين لوحظ إن الإناث المقدسيات قمن بالمجابهة كالذكور المقدسيين، فإن الفلسطينيات الشابات حاملات هوية الضفة واللاتي كن ينتظرن تدخلًا من الذكور لمساعدتهن،

أو يقمن بمقاومة اعتداء وتحرش الجنود الشديد لهن جنسياً بطريقة جسدية، حيث وجدت قصة واحدة فقط تظهر مقاومة أنثى تحمل هوية الضفة لمحاولة نزع ملابسها من قبل الجنود، وما يرجح هذا الرأي هو وجود قصص لإناث من القدس قد قمن بمجابهة لفظية كالذكور، أما الإناث من حملة هويات الضفة فلم يقمن بذلك مطلقاً، وهو ما سنأتي عليه لاحقاً.

وعن الأسباب التي كانت تقف وراء المجابهة الجسدية العنيفة نجد في رقم 13 (رقمها في الملحق المرفق بالدراسة) أنه قد تم ضرب الجندي لأنه مسّ انتماء الشبان القومي كعرب فلسطينيين، وقد كانوا من حملة هويات القدس، حيث يقول الشاب: "لقينا حاجز مفاجئ وجندي حرس حدود واقف بنص الشارع بوقوفنا وبعيد عنه يمكن 15 أو 20 متر سيارة شرطة طلب هوية صاحبي اللي بيسوق حكي كلمة بالعبري ناسيها بس ما بتتحكى إلا للأشياء النكرة، بما معناه (خلي هدول الأشياء أو الحيوانات يجيبوا هوياتهم) وهو بيحكي بطريقة مقرفة مستفزة، واحنا كان فينا عقل وطار ونزلنا له وبلشنا فيه ضرب بجنون كنا جدا حاقدين عليهم بزياده يوميا من كتر ما وقفونا".

وفي قصة رقم 42 قام طالب جامعي من حملة هويات القدس بضرب الجندي لأنه ضربه خلال جدال حصل بينهما يقول الشاب: "دفعني باتجاه الباص البعيد مترين، حينها صرت أنظر في عينيه وهو كذلك ومستفز، بعدها ضربني بقدمه على رجلي لكنني ابتعدت عنه ثم ركلته بدوري على جسمه حينها تجمع الطلاب ورأيت جنديين كلهم أتوا حين رأوا عرا كنا، صار الشباب يمسوني ليعدونني والجنديان يحاولان إبعاد ذلك الجندي عني".

كان ذلك مع الذكور من القدس أما عن الإناث من القدس، فقد وجد قصتان لشابات يحملن هوية القدس قمن بضرب مجندات بعد أن قامت المجندة بشتمهن أو ضربهن خلال جدال حصل بينهما، ففي قصة رقم 1 تقول الفتاة: "ونادت المجندة علي انت وقي عجنب، أخذت الهوية وظليت

ملطوعه بستتنا تقريباً نص ساعة مشيت عندها قلت إلهها شو بدك مني، شايفه داري هناك فوق الحاجز وهويتي مزبوطه ليش موقفتيني، قلت إلهها هيك بعصبية، قامت ظربتني كف، مديت ايدي ع وجهها بدي أضربها زاحت وجها وأظفري خرمشوا رقبتهما"، وفي قصة رقم 4 تروي فتاة تبلغ من العمر 22 سنة من سكان القدس قصة سمعت أنها حدثت مع طالبة أخرى من القدس فتقول: "طلبت المجندة هويتها وطلبت منها توقف على جنب ، الطالبة رفضت وقالتها: أنا معي هوية زرقاء وفش داعي عشان توقييني، المجندة دفعتها بقوة للوراء وقالتها: هذا هو رقم الدورية اذا ما عجبك روحي إتشكي، الطالبة دفعت المجندة لورا دفاعاً عن النفس، ووقعت المجندة على الأرض وصارت تصرخ".

يلاحظ من القصص السابقة أنه لم يكن هناك فرق في الجنس أو الأسباب ما بين الذكور والإناث من حملة الهويات المقدسية في مجابتههم للجنود على الحواجز واستخدام العنف الجسدي كرد على عنف الجنود، حيث كلا الجنسين هم من الشباب ما بين 18 إلى 35 سنة، ففي الوقت الذي يقوم الشبان بالرد على الجنود بالعنف، تقوم الفتيات بالرد على عنف المجنّدات بالعنف، في حين نجد أن الأسباب التي دفعت هؤلاء الشبان والشابات لاستخدام العنف ضد الجنود والمجنّدات، هي أقل حدة من تلك التي تحصل مع حملة هويات الضفة، وربما سبب ذلك لكون حملة هويات القدس يستطيعون رفع شكوى قانونية على أفراد الشرطة وحرس الحدود، أو يشعرون أنهم محميون بصورة أكبر، مما يعطيهم قوة أكبر ويقلل من خطورة نتائج ممارسة العنف ضد الجنود كرد على عنفهم، فقد كانت تلك القصص تنتهي إما بغرامة أو بحل المشكلة بين الشبان والضباط على الفور، وقد كان جميع الذين قاموا بالرد على عنف الجنود بالعنف هم من طلاب المدارس أو الجامعة، في حين تغيب عن المجابهة بشقيها الكبار من النساء والرجال من القدس.

أما في القصص التي حصلت مع من يحملون هويات ضفة غربية، ففي قصة رقم 18 قام شاب بضرب الجندي، لأن الجندي شتم شرفه "شتم أمه وأخته" حيث استشهد خلال العراك بعد أن اطلق الجنود النار عليه، وقد كان يعمل معلماً، وأيضاً في قصة رقم 17 قام الشاب وهو موظف حكومي بضرب الجندي دفاعاً عن زوجته وأمه اللتين تعرضتا لتحرش الجنود، يقول الشاب: "قلت للجندي ألا يكفيك وقوفي أنا والأولاد فقال لي إخرس وذهب لينزل والدتي لم أستطع تحمل إهانة والدتي ألا يكفي إهانتني فذهبت نحوه وأبعده عنها ولم أرى سوى باقي الجنود أسرعوا بإمساكي وقد طرحوني أرضاً وأنزلوا والدتي من السيارة وقد شدوا يدها بسرعة فما كان مني إلا أن أبعدت الجندي من يدي وأركض نحو من أمسك بوالدتي .. فهجم باقي الجنود وأمسكوا بي من ظهري والآخرين شدوا يدي إلى الخلف حتى صرخت وبعدها ألقوا بي على الأرض وكنت أنظر إلى أمي وزوجتي وهم يبكون تمنيت لو أبقى مطروحا على الأرض ولا أرى أحداً من حولي ..".

وهذا ما حصل في قصة رقم 43 حيث قام شاب بضرب الجندي الذي كان يصرخ على زوجته لأنها تقدمت للحاجز مسرعة، يقول الراوي: "وبادره الضابط بسؤال: لماذا اعتديت بالضرب على الجندي؟ فأجابه وبكل بساطة وثبات، إجابته تتم عن إنسانيته واحترامه لزوجته بشكل خاص وللمرأة بشكل عام قائلاً له: "تزوجتها منذ أحد عشر عاماً ولم أرفع صوتي عليها، فكيف بي أتحمّل أن يأتي كلبّ الحاجز هذا يصرخ بها وبهذا الشكل"، أما بقية القصص الأخرى فقد قام الشبان بضرب الجنود لأنهم مسوا شخص الشاب وذاته بضربه بلا مبرر، أو السخرية منه، حيث يلاحظ أن تلك القصص التي حدثت مع من يحملون هويات الضفة الغربية، كانت عادة تنتهي بضرب مبرح يتلقاه الشاب من قبل الجنود وعدم المرور على الحاجز.

وعليه فقد كانت أسباب حملة هويات الضفة الغربية لخوض المجابهة لدي الذكور على درجة عالية من شدة المس بذواتهم، أي يتحركون لأسباب أكثر شدة من أقرانهم المقدسيين، وهي حين تصل بدرجة أولى للمسّ بقيم الشرف والقيم المرتبطة بالأنوثة أو الرجولة، كما كان كل الذين قاموا بضرب الجنود من فلسطينيي الضفة، شباناً تتراوح أعمارهم ما بين 18 الى 35 سنة، كما يحوزون سنوات التعليم الأعلى فهم طلاب مدارس وجامعات، موظفون حكوميون، منهم أيضاً المهندس مما يجعلهم يمتلكون تقديراً عالياً لذواتهم، الأمر الذي يدفعهم للمجابهة أكثر من غيرهم، كما وجد تاجر دون الإشارة لمستوى تعليمه لكنه عرف على نفسه بالتاجر مما يدل على حيازته لتقدير عالي للذات كون التاجر له مكانة اجتماعية مرموقة في مجتمعنا، في حين وجد فقط عامل واحد بينهم دون الإشارة لمستوى تعليمه، بحيث لوحظ فرق من حيث طبيعة الأسباب التي تدفع لاستخدام الرد على العنف بالعنف، ما بين حملة هويات القدس وحملة هويات الضفة الغربية، حيث لجأ المقدسيون لضرب الجنود نتيجة أسباب أقل حدة من تلك التي دفعت حملة هويات الضفة لضرب الجنود، الذين كانت الأسباب لديهم تتمثل في المسّ بقيم الشرف أو المسّ بالإناث ممن يقربن لهم، وصولاً إلى الضرب أو السخرية غير المبررة، في الوقت أن مجرد تلقي الشاب أو الشابة المقدسية شتيمة من الجندي أمر كافٍ لحدوث مواجهة بالضرب.

وأخيراً ففي الوقت الذي وجد قصص ضرب للجنود بين الشبان والشابات حملة هويات القدس، فلم يوجد إلا قصة واحدة عن شابة تحمل هوية الضفة غربية قامت بضرب جنود، حيث من أصل 220 وجد قصص عديدة تصف تحرش الجنود بهن لكنهن لم يجابهن، إلا أنهن كن يقمن بالرد العنيف في أقصى درجات التحرش التي تأخذ طابعاً جنسياً جسدياً، ففي قصة رقم 22 يقول شاب: "روى لي صديق ما رآه بأه عينه على حاجز حوارة القريب من مدينة نابلس في العام 2003، حيث رأى فتاه من بلدة دير استيا محاطة بثلاثة جنود كانوا قد اوقفوها بعد ان اشتبهوا فيها بأنها

تحمل شيئاً من المتفجرات، طلبوا منها نزع ملابسها على مرأى الناس، فرفضت وبدأت مشاحنات بينها وبين الجنود، فقام أحد الجنود بمحاولة نزع الجاكيت الذي كانت ترتديه، وحينها قامت بإبعاده عنها فانهالوا عليها بالضرب حتى فقدت الوعي والناس ينظرون إليها وأنا منهم دون أن نحرك ساكنين، وبعد لحظات جاء جيب وحملها، وبعد أيام سألت عن مصيرها وتفاجأت أنها لا تزال في حالة غيبوبة، وبعد أن افقت من الغيبوبة كانت تعاني من صعوبة في النطق ولا تزال حتى الآن على حالتها".

كانت تلك القصة الوحيدة من أصل 220 قصة ككل ومن أصل 43 قصة تتحدث عن مجابهة سواء جسدية أو لفظية، والتي أجبرت شابة تحمل هوية ضفة فيها على خوض المجابهة بقسوة كبيرة، كما لوحظ أن الشابات من حملة هويات الضفة كن ينتظرن تدخلاً من أحد الشبان عوضاً عن خوض المجابهة بأنفسهن، ففي قصة رقم 43 تقول فتاة تبلغ من العمر 29 سنة، أنها حين كانت طالبة في الجامعة أوقف حاجز التوكسي وأنزل كل من فيه، وطلب الجنود أن يفرغ كل راكب حقيبته على الأرض للتفتيش، وحين جاء دورها شعرت بالخجل والتردد لأن حقيبتها مليئة بالملابس الداخلية، لكنها فتحتها وحينها قال لها شاب بجوارها أغلقي الحقيبة ففعلت رغم صراخ الجنود عليها، لكنها لم تفعل لأن الشاب صرخ أغلقي الحقيبة ففعلت، وهنا شتم الجنود الشاب الذي رد بالمثل ثم اشتبك الجنود مع الشاب واعتقلوه، وهذا مشابه لقصة 26 التي ترويها فتاة عمرها 23 سنة فتقول: "واحد ماشيين لقينا الجيش فلما شافوني هجمو وصاروا يلحقوا فينا والناس تهرب كانت أمي وراي وأنا قدامها فلقيت جندي قدامي فجأة ما بعرف كيف طلع فصوب الباروده علي، فلما شفتو هيك صرت أصيح وأمي م اقدرت توصل عندي، نط شب وصار يركض ومسكني وصار يرجعني لورا وضاعت يومها ساعتني، بتزكر بيومها وقعت أكثر من ثلاث مرات".

هذا وقد ورد من بين 18 قصة رواية واحدة حول رشق الحاجز بالحجارة من قبل الشبان الفلسطينيين، الذي يؤسوا من ممارسات الجنود وتأخيرهم مرور الناس عبر الحاجز، فيستغلوا أي فرصة للتعبير عن

سخطهم، حيث تظهر هنا مواجهة جماعية، فليس البطل شاباً بمفرده، بل تتحول المجابهة إلى مجابهة جماعية للجنود، ففي قصة رقم 23 يروي أحد الشبان فيقول: "مرة كنت واقف على محصوم قلنديا، وكانوا الجنود هاديين ويمشوا بالناس، ففي لحظة ما شفنا إلا جندي ارتمى على الأرض وصار الدم ينزل منه، فالجنود ارتبكوا وصاروا يطخوا على الناس والناس صاروا يركضوا ويرجعوا لورا وسكروا المحصوم، وفي شباب جابوا حجار وصاروا يرموا على الجنود والجنود يطخوا ورجعوا كل الناس وما خلّوا حدا يمرق. ويومها الجندي انقتل".

نجد من 18 قصة، روايتين حول طفلين لم يتجاوزا سن الرابعة، تعطي مؤشراً لاكتسابهم كراهية للجنود الإسرائيليين على الحواجز، وهو يرجع لما يسمعه ويعانيه الأطفال على الحواجز مع أهلهم، ففي قصة رقم 11 ترويها فتاة عمرها في أوئل العشرينات تقول: "وقفنا على محصوم زعترة وكان معي ابن اختي وعمره أربع سنوات ولما فتح الجندي باب الفورد وشاف ابن اختي (طال من جيبته كمشة ملابس واعطا اياها اجا ابن اختي مسك الملابس ورماه في وجه الجندي انا خفت كثير عليه أو خفت اتبهدل بس الله ستر"، وهذا مشابه لقصة رقم 9 التي يرويها رجل في أواخر الثلاثينيات فيقول: "كنا على محصوم الحمرا والنا أكثر من ساعتين واقفين ومش امشيين حدا، كان معانا في السيارة ولد عمرو من 2-3 سنين وهاض الولد مع ابوه وكانت شوب مش طبيعي انزلنا من السيارات من الشوب ما شفنا إلا الولد الصغير رمى حجر عالجنود اطلعوا الجنود بغضب وحكيينا لأبوه منيح الاي ما أخذوك".

وأخيراً لوحظ أن من يروي القصص عن المجابهة الجسدية العنيفة هم في الغالبية من الشباب والشابات، حيث يقومون برواية تلك القصص بمجرد سؤالهم عن حادث مميز على الحاجز، مما يعني افتخارهم بقيامهم أو قيام أقرانهم بتلك المواجهة الخطيرة النتائج.

#### 4. 1. 2. المجابهة اللفظية

أما عن القصص التي تخللها مجابهة لفظية ومواجهة ندية فقد كانت 25 قصة من أصل 43 قصة مجابهة، حيث حدثت 6 قصص مع إناث، ثلاث منها مع شابات مقدسيات، والثلاث الأخرى مع نساء يحملن هوية الضفة الغربية وقد تجاوزن سن 40 سنة، بحيث غابت الشابات حملة هوية الضفة عن المجابهة اللفظية بالكامل، كما حدثت المجابهة اللفظية في القصص الباقية والبالغ عددها 16 قصة مع ذكور شباب ما بين سن 25 الى 35، لتظهر قصتان عن مواجهة لفظية ما بين رجال تجاوزوا عمر 40 سنة، ففي حين كانت المجابهة الجسدية العنيفة تنتشر في الفئة العمرية ما بين 18-35 عاماً، فإن اللفظية كانت أكثر انتشاراً بين الفئة العمرية ما بين 25-35 عاماً، بحيث يلحظ أنه كلما زاد العمر اتجه الشباب إلى المجابهة اللفظية أكثر، وذلك لتفادي مجابهة قد تكون وخيمة العواقب، كما لوحظ إن المجابهة اللفظية والتحدي تتمظهر من خلال الإصرار على المرور عبر الحاجز، شتم الجنود أو السخرية منهم، رفض الانصياع للأوامر حتى لو كلف هذا الإصابة بطلق ناروي أو الموت.

كانت الشابات المقدسيات من عمر 14 إلى 18 سنة يقمن بالإصرار على تحدي الجنود والمرور على الحاجز ففي قصة رقم 3 تقول طالبة مقدسية عمرها 14 سنة: "مره صار معي انه كان فيه حاجز طيار وأنا راكبه في السيارات الي بتوصلنا المدرسة، الجنود طلبوا من الشوفيرية ايوقفوا طابور ورا بعظ، أنا متأخرة عن المدرسة، قمت إنزلت من السيارة وظليت ماشيه ولا إنفتحت ع الجندي، صاح عليه وين الكوشان، قلته ما في معي كُشان، قال: طيب هاتي الشنته، كلته: شنته مدرسة فيها كتب، وبعدين أنا متأخرة ع المدرسة وظليت ماشية ولا رديت عليه، فجأة سمعت صوت تعديل بارودة أما والله موتت من الخوف، قلبي سقط، كبر الله والله شكله بده يطخ، والا هو بصيح ثاني مره ما بتمري بدون كُشان مفهوم؟ وظليت ماشية ولا على بالي وأنا في الطريق مروا عني السيارات وكلهم صاروا يعطوا زامور، افهمت منه إنه يرافو عليك ما خفت ولا تنازلت".

في حين أن النساء من حملة هويات الضفة كانت أعمارهن فوق 40 سنة، حيث قمن بتحدي الجنود للمرور، بحيث لم يشفع لهن كبر سنهن ويحميهن من الضرب، تقول موظفة في وزارة الشؤون الاجتماعية وعمرها 44 سنة: "وأنا على حاجز سردا كنت جاي على الشغل والطريق مسكرة قلت للجندي بدي أمرق على رام الله فقال لي: لأ ممنوع، فقلت له: غصب عنك ومشيت فمسك بي وضربني ضرب مبرح ورجعني على البيت"، في حين تتحدى أم أشرف الجندي الذي يهددها بالبندقية فتمسك بها وتضعها على جبهتها قائلة طخ: "مدت يدها وأمسكت بماسورة البندقية ووضعتها في منتصف جبهتها وقالت بصوت حاد إذا كنت راجل أطلق النار، بهت الجندي الذي صعق من جسارة أم أشرف".

وعن الذكور فقد كانت مواقفهم المتمسة بالمجابهة اللفظية والندية تظهر عندما يتعلق الأمر باحترام الذات، مثلما حصل في قصة رقم 7 والتي حدثت مع مهندس عمره 30 سنة يقول: "وقفنا مخصوم عند الطيبة وكنا جايين من طولكرم نزلوا كل الشباب الي في الباص وحولنا: اذا مستعجلين بدكم تروحو غنولنا: 'واحد حمص واحد فول احنا بنحب مشماركفول'، مارضينا وضلوا حاجزينا 3 ساعات في الشمس وبعدين حكوننا روحوا، قصة أخرى تعرض فيها شاب عمره 32 سنة للاصابة بعيار ناري لانه لم يمتثل لأوامر الجنود المهينة في قصة رقم 16، حيث يقول: "كانوا رابطين حبل للناس عشان يمرؤا من تحته، وما كان يمر شب ولا بنت إلا يمر من تحته ويأديلهم التحيه بحيث ينزل راسه عشان يمر من تحت الحبل، أنا لما شفته اترددت أمر ولا لأ، كنت بدي ألف حول الحاجز، بس الطريق وعره وبعيده، قررت أمر بس حلفت ما رح أنزل رأسي، حتى لو بموت، قربت على الحاجز ولما وصلت عند الحبل، دفعت الخشبه إلي كان مربوط فيها الحبل ومريت من جنبها وما نزلت رأسي، نادى علي الجندي عشان أرجع وامر من تحت الحبل وما رضيت، شردت منهم كانوا قريبين مني كثير، بلشوا بالطخ علي صابنتي رصاصه في ظهري وطلعت من بطني".

أو أن تكون أوامر الجنود متعلقة بما يمس قيم الرجولة حيث رفض العديد خلع بنطالهم ممن يبلغون عمرا يتجاوز 30 سنة، يقول رجل عمره 43 سنة كانت مجندة تفتشه على الحاجز: "وأخيراً طلبت المجندة مني خلع بنطالي ورفضت وأصرت هي وبالتالي عدت الى بيتي في ذلك النهار وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بيد الله"، وهو الامر الذي رفضه شاب مقدسي عمره 27 سنة في قصة رقم 24 حيث يقول: "جاء دوري فطلبت مني المجندة برفع قميصي، فرفعت ثم طلبت خلع الحزام فخلعته ثم الحذاء...، بالنهاية طلبت مني خلع البنطلون، وجن جنوني ورفضت ذلك قطعياً وظلت تطلب مني ذلك وأنا أرفض وحصل صراخ ما بيني وبينها باللغة العبرية، فأنا أرفض خلع البنطلون وهي لا تسمح لي بالمرور، قلت لها ليس لي بيت آخر أريد العودة ولكن دون جدوى، بالنهاية طلبت الشرطي المسؤول وتجادلت معه ولم أخلع البنطلون وخرجت من ذلك الحاجز".

ومن الطريف أنه وجد قصة تتأفي هذا التوجه لدي من هم من الفئة العمرية التي تقل عن 25 سنة، ففي قصة رقم 38 يروي شاب عمره 18 سنة وهو عامل (مما يشير الى تدني مستواه التعليمي) ما فعله على أحد الحواجز ليسخر من مجندة فيقول: "لقد ذهبت أنا وصديقي إلى رام الله، كانت طريق الذهاب إلى رام الله سهلة وعند العودة على حاجز قلنديا كان هناك تفتيش قوي على الحاجز، كان هناك مجندة حلوة، فادعينا أننا لا نعرف العبرية فعندما قالت لنا ضعوا أغراضكم على الماكينة لكي يذهبوا الأغراض إلى الجهة الأخرى للفحص خلعنا أحذيتنا فصرخت علينا ضعوا الجاكيتات فحاولنا خلع البنطلون، فصرخت ضعوا كل ما في جيوبكم على الماكينة فخلعنا الحذاء والجريبات. فصرخت علينا مرة أخرى وجاءت بنفسها وأخرجت كل ما في جيوبنا وسمحت لنا بالمرور، وضحكنا فعرفت أننا نسخر منها، فغضبت، غضباً شديداً وأرجعتنا إلى رام الله عقاباً لنا فذهبنا إلى الرام عن طريق الكسارات وهذه هي قصتي على حاجز قلنديا وستبقى في ذاكرتي"، حيث يلحظ هنا شروعه بخلع البنطال دون أن يطلب منه ذلك وأمام مجندة.

كما يأتي الرفض والانصياع للجنود أيضاً إذا ما تعلق الأمر بإهانة للقيم الاجتماعية وخاصة حين تمس بالمرأة وقيم الشرف، ففي قصتين يرفض الشاب تقبيل الفتاة كي يمر مما يجعلهما يعانيان على الحاجز ففي قصة رقم 15 يقول معلم عمره 40 سنة ما حدث أمامه على الحاجز: "الجنود طلبوا من أحد الشباب أن يقبل وجه صبية شكلها كانت بطريقها للجامعة، ولكن الشاب رفض ذلك، وأصر الجنود على تنفيذ امرهم ولكن رفض الشاب قبول بالضرب والاهانة، وأخيراً انتهى الأمر بعدم القيام بذلك بتاتا حتى ولو تم قتله، وكانت أصوات الجنود تعلو وصراخه كذلك، وبعد أن ضربه الجنود لدرجة التكسير، اقتربت الشابة منه وطلبت أن يقبلها رافة بحاله، ولكنه بقي مصراً على موقفه، وبعد ذلك سمح لنا بالمرور بعد معاناة وضرب واهانة لم يسبق أنه تعرضت لها من قبل"، وهي نفس القصة التي تروي فتاة عمرها 23 سنة أنها سمعت أنها حدثت في مكان آخر وهنا يظهر بعد اسطوري في القصة، ففي قصة رقم 19 تقول الراوية: "لقد سمعت أنه على حاجز الرام أنزل الجيش فتاة من السيارة ومنعوا باقي السيارات من السير وطلبوا من شاب تقبيل الفتاة حتى يمرروا باقي السيارات، فابى الشاب وكذلك الفتاة وبقوا على الحاجز عدة ساعات حتى قالت الفتاة للشباب (قبلني ما انت مثل أخوي) وقبلها ... لكنه ذهب الى بيت الفتاة وطلب منها الزواج لأنه شعر بانتهاك عرضها أمام جمع من الناس من يعرفها ومن لا يعرفها ... "عند انو شب جدع وابن ناس ولولا انو هيك ولا كان باسها وراح وانتست الشغلة بس هي الشباب اللي قد حال" ويلحظ أنه في كلا الحالتين كان بطل القصة شاباً يجابه الجنود برفضه وكبرائه، ودون أن تناقش البعد الاسطوري في مثل هذه القصص ووقوعها بالفعل من عدمه، إلا أن وجودها ذو دلالة في نهاية الأمر.

هذا وقد لوحظ أن كلا الجنسين يخوضان المجابهة الندية أمام الجنود على الحواجز، لدي حملة هويات القدس من الفئة العمرية ما بين 14 إلى 35 سنة، في حين أن المجابهة اللفظية كانت لدي حملة هويات الضفة

منتشرة بين الفئة العمرية الممتدة من سن 25 إلى 45 سنة، مع ملاحظة أن النساء ممن تجاوزن عمر 40 سنة كن يخضن تلك المجابهة، في حين كانت الإناث من سن أقل يعتمدن على تدخل الشبان في أحيان كثيرة ولا يتجرأن على المبادرة بالمجابهة.

أما الرجال من سن يتجاوز 40 سنة فقد كانوا إما متفرجين، أو كانوا يخوضون المواجهة حين يتعرضون لمواقف تمس الرجول وعدم احترام السن كخلع الملابس، وغالباً ما كانت مواجهتهم منخفضة الحدة، بمعنى رفضهم تلك الممارسات أو الأوامر والرجوع عن الحاجز، بعكس النساء من سن 40 سنة فما فوق فقد كن يراهن على كونهن نساء وكبيرات في السن عند مجابهة الجنود، ففي قصة رقم 20 والتي جاءت على لسان رجل عمره 43 عاماً يقول: "وفي احد المرات كانت مجنده هي التي تفتش وعندما وصل عندي الدور ودخلت تحت الماكينة التي ترن رنت الماكينة، وطلبت مني العودة وترك أي شيء معدني، رجعت ووضع كل شيء جانبا وكلما أحاول العبور من الماكينة فإنها ترن وأخيرا طلبت من خلع بنطالي ورفضت وأصررت هي وبالتالي عدت الى بيتي في ذلك النهار وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بيد الله"، حيث يلحظ منها كون مجابهته تتميز بكونها سليمة أو لنقل سلبية من حيث عدم كونها هجومية كرد على هجومية المجندة، أما القصة الثانية، فهي عن كهل تجاوز الثمانين يقول: "وقام لحقتي ومسك بكتفي وقال ممنوع ارجع البيت، نزلت ايده بقوة وقلت له "انا بجيل ابو ابوك ونزل ايدك عني قبل ما اكسرها، رد صاح وقال حجج ممنوع، قلت له ولك استحي ما انت بجيل اولاد اولادي لا سمح الله ولا تبقى زيهم، وقام ثلاث جنود تانين اجوا معه، وصاروا ايرجعوا في وأنا عصبت واول مرة بلاقي حالي بسب الدين وقلت لهم بسب دينكم، وبعدين القيت حالي بصيح وبغني "علدا العونا على دا العونا الوطن وطننا واجو الغرب غزونا، وبلشت الوح بالعصاي" وبغض النظر عن كون هذه الرواية دقيقة أم لا من حيث هجومية هذا الكهل وغنائه الدلعونا لكن يظهر هنا دور الشباب حين

يقول: "وقامت الشباب الصغيرة على الحاجز ثاروا وبلشوا يهتفوا والجنود تركوني وراح ايسكتوا الشباب وانا ظللت ماشي" فلولا الشباب لما تمكن هذا الكهل من العبور على الحاجز وتجاوز الجنود.

يلاحظ أن الفئة العمرية في المجابهة اللفظية قد ارتفعت من سن 18 إلى 25 كبدائية وصولاً إلى سن 35 لدي الشبان، وظهور أشكال من المواجهة والتحدي لدي من هم فوق سن 40 عاماً عند النساء، أما عن الفرق في الجنس فلم يكن هنالك فرق ما بين الذكور والإناث من القدس، بعكس حملة هويات الضفة، حيث تركزت المجابهة اللفظية في الشبان الذكور وغابت الإناث الشباب لتظهر النساء فوق سن 40 سنة، مع ظهور للرجال بصورة هامشية على هذا الصعيد، وقد تميز من يقوم بهذه المجابهة أيضاً بكونه من الموظفين وأصحاب سنوات التعليم العالي في الأغلب.

#### 5. خلاصة

على اعتبار أن ثلاثة قصص تشير إلى نمط ما، يظهر مبدئياً أن من كانوا يخوضون المجابهة دون تحديد نوعها هم من الشبان الذكور بعمر ما بين 18 إلى 35 سنة (في القدس ومناطق الضفة الأخرى)، وهذا ما جعلهم أكثر حدية واندفاعاً عند المجابهة، دون وجود فرق بين الجنسين، لكننا إذا ما قمنا بمقارنة الشبان والشابات من حملة هويات الضفة وحملة هوية القدس، سنلاحظ عدم وجود فرق بين الجنسين لدي حملة هويات القدس، بعكس أقرانهم من حملة هويات الضفة، حيث غابت الشابات، في حين كان جميع الشباب لذين قاموا بالمجابهة ذكوراً وإناً من الطلاب وذوي التعليم العالي أو الموظفين أو المهن التي تعطي تقديراً عالياً للذات، أما من كان يقوم بالمجابهة اللفظية فهم من فئة عمرية تمتد ما بين 25 إلى 35 سنة لدي الذكور، أما الإناث من حملة هويات الضفة الغربية فكن ممن تجاوزن سن 40 سنة، ولعل عامل التقدم في العمر يدفع باتجاه المجابهة اللفظية من باب التعقل أو لأن الموقف لم يمس جوانب الشرف والقيم المرتبطة بشرف المرأة.

لوحظ في شكلي المجابهة أن الإناث في القدس لا يختلفن عن الذكور، أما في الضفة الغربية فقد كن أقل جرأة من الذكور في المجابهة، والتي تكاد تكون معدومة، حتى إذا تعلق الأمر بتحرش جنسي من الجنود، حيث وجد عدة قصص عن تحرش طابعه جنسي بالإناث من قبل الجنود من بين 220 قصة، لكنهن لم يقمن بمجابهة لفظية أو جسدية، وقد وجدت قصة واحدة يفهم منها أن الإناث من حملة هوية الضفة يتحركن في اللحظة التي يتناول فيها الجنود جسدياً، حيث يكون هذا هو الخط الأحمر، ولذلك لم يجابهن لفظياً حيث لم يكن مجبرات على الدخول في مجابهة لفظية، وربما هذا يرجع للخوف على السمعة إذا ما أقدمت على خوض مجابهة جسدية أو لفظية دون سبب يشكل خطراً داهماً على الشرف الذي هو حياة الفتاة حسب قيم المجتمع في الضفة الغربية، وهو الأمر الذي ربما تكون وطأته أقل حدة في القدس على الشابات الإناث.

أما أسباب المجابهة، فقد كانت عند الذكور الشباب في الضفة حين يتعلق الأمر بالقيم الاجتماعية وقيم الرجولة والأنوثة وقيم الشرف خاصة التي تمس ما يسمى "العرض" وشرف المرأة، ومن ثم حين تمس ممارسة الجنود بصورة كبيرة جداً احترام الذات لدي الشبان أو لا يكون لها مبرر، كما لوحظ أن دوافع فلسطيني القدس هي أقل من حيث حدتها من دوافع فلسطيني باقي مناطق الضفة لخوض أي نوع من المجابهة، فيكفي إن يتعرضوا شباب القدس ذكوراً أو إناثاً للسب من قبل الجندي ليجابهوا بعنف ناهيك عن كون نهاية الحدث هي أقل ضرراً من تلك التي تحصل مع فلسطيني الضفة الغربية، كما لوحظ أن فلسطيني القدس بدورهم لا يقلون عن فلسطيني الضفة الغربية من حيث معاناتهم من الحواجز، بل أن هذه الحواجز لربما قد أعادت بعضاً من اللحمة التي حاول الإسرائيليون إزالتها بعد خلقهم للتمييز ما بين أبناء الشعب الواحد من حيث الهوية، فرغم كل ما يمكن وصفه بامتيازات لحملة هوية القدس عن حملة هوية الضفة، إلا أننا نرى نفس الخطاب نسبياً لدى الجهتين حول الحواجز.

وأخيراً ففي الحقيقة أن هذا الموضوع هو أكبر من أن يحاط به في هذه العجالة، التي ليست أكثر من عملية استكشاف لهذا الموضوع الذي يحتاج إلى بحث وتمحيص كبيرين، لما لهذا الموضوع من آثار كبيرة على المجتمع الفلسطيني تمس جميع جوانب حياته وحياة أفراده.

### المصادر والمراجع

1. حجازي، مصطفى 2005. التخلف الاجتماعي- مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط9.
2. حمامي، ريماء 2005. حكاية حاجز تفتيش في زمن الاحتلال، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 63.
3. كناعنة، شريف 1992. الدار دار أبونا، مركز القدس للدراسات الفلسطينية، القدس.
4. علقم، نبيل وشريف كناعنة، 2003. الحواجز العسكرية الإسرائيلية، مركز فلسطين للدراسات والنشر، رام الله-فلسطين.



